٢

ما السبب وراء ضخامة سفر (ثروة الأمم)؟

حين نجلس لنقرأ تحفة آدم سميث (ثروة الأمم)، ونضع في حضننا أجزاءه الثقيلة، ثم نفتح الصفحة الأولى من صفحاته العديدة، نجد أنفسنا في حالة من الإحراج الفكري التي تتجاوز مجرد الاختلاف مع منطق سميث وحكمه البدهي السليم. نواجه إشارة استفهام كمية. وهذا ما يحدث لمعظم قراء غالبية الأعمال العظيمة (خصوصًا في وقت متأخر من الليلة السابقة على الامتحان). حتى أشد المخلصين للتفسير النصي/الحرفي للكتاب المقدس، في أي ندوة معمدانية محافظة، لا بد أن يفكر فيها (الإشارة) وهو يخوض في قوائم أنساب الأسباط في الأسفار التاريخية (في العهد القديم)[1]. وأنا، أو في الأيام السعيدة التي أعتقد فيها أنني كذلك، مؤيد مخلص للأسواق الحرة ومدافع متحمس عنها. لكن (ثروة الأمم)، في نسخة

(مودرن لايبراري) التي بحوزتي، مؤلف من تسعمئة صفحة، إضافة إلى تمهيد، ومقدمة المحرر، وملحق.

قيل لي إن من مسرات الكهولة قراءة الكلاسيكيات مرة أخرى. لكنني الآن، بعد مرور أربعين سنة تقريباً على آخر درس حضرته في الجامعة، نسيت كل شيء عنها. من المفترض بي أن أكتسب رؤية إدراكية جديدة وناضجة من (حوارات) أفلاطون؛ وأتذوق طعمًا جديدًا وطازجًا في (ضياع الفردوس)؛ وأعرف بوصفي راشدًا بالغًا العجائب المنسية لـ (ثروة الأمم). وهذه تشمل التساؤل: هل قرأته فعلًا من قبل؟ ثم اختبرت نفسي بسؤال صريح: هل نسيت المرجع الشهير الذي يشرح روائع الكتب (مونارك نوتس) (Monarch Notes)؟

على أي حال، ثمة متعة أخرى في منتصف العمر هي أن الكهل لا يتأثر كثيرًا بالغضب الناجم عن الخذلان وخيبة الأمل. فأنا الآن على أتم الاستعداد لطرح السؤال الذي لم أمتلك الشجاعة لطرحه، حين كنت طالبًا جامعيًّا. تصوروا طالبًا في سنة التخرج يستحضر ما لديه من جرأة ليسأل عن السبب وراء التطويل الممل في رواية جورج إليوت (ميدلمارش Middlemarch)!

يتمثل أحد أكثر الأسباب بساطة وراء عدم اقتصاد سميث في الكلمات في أنه ملائم اقتصاديًّا. فحين نشر الكتاب بلغ سعر النسخة جنيهًا وستة عشر شلنًا. ووفقًا لتقديرات سميث ذاته، لم يتجاوز (أجر العامل العادي) آنذاك عشرة شلنات في الأسبوع.

وكان المستهلكون، حتى المستهلكين الميسورين للسلع الفكرية المترفة، يطالبون بأن يكون المنتج ثقيل الوزن كبير الحجم. لنقارن الحال مثلًا مع (اعتذار عن حياته) لبيل كلينتون الذي يمكن إيجازه ببضع كلمات مختارة.

جمع (القارئ الليبرتاري)، الذي نشره معهد كاتو عام ١٩٩٧، الأفكار الجوهرية لآدم سميث، المقتطفة من (ثروة الأمم)، في سبع صفحات ونصف الصفحة. وحين كان ديفيد بوز، نائب المدير التنفيذي للمعهد، ومحرر (القارئ)، يكتب المقدمة، أضاف شيئًا بقصد توفير المتعة الكاملة لقراء كل عمل أصيل استمد منه مادته. لا، لا، ليس (ثروة الأمم)، حسبما قال توم بالمر، كبير الزملاء في المعهد والخبير المختص (المقيم) بآدم سميث.

تمثل نبوغ سميث في ترسيخ علم الاقتصاد بوصفه فرعًا معرفيًّا متميزًا عن الخليط المتشابك والمشوش للعالمين العقلي والمادي الذي نواجهه في الاقتصاد الفعلي على أرض الواقع. لكن الأمر لا يتطلب مواجهة اقتصادية شاملة لاستحضار الخلطة المتشابكة من الفروع العلمية والمعرفية إلى رأسي. والتفكير في علم النفس، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والهندسة الميكانيكية المعنية عندما أكتشف أن طفلي البالغ خمس سنين أخذ لعبة من المتجر (السوبر ماركت) دون أن يدفع ثمنها. كان آدم سميث، مثلنا أنا وطفلي المنتحب، على استعداد للابتعاد عن المعايير الاقتصادية الصارمة.

هـا هو هنا، يسبـق عصرنا بأكثر مـن مئتين وثلاثـين سنة ليوضح السبب الكامن وراء الثروة المشينة التي جمعتها أنجلينا جولي:

هنالـك عدد من المواهـب اللطيفة والبديعة يحظى امتلاكها بنوع معين من الإعجاب؛ لكن ممارستها في سبيل المكسب تظل محل مساءلـة وأخذ ورد.. مثل (الأعمال غـير الشريفـة).. فالمكافـآت الضخمـة التـي ينالها الممثلـون، ومغنيـات الأوبـرا وراقصاتها إلـخ.. مؤسسة على.. ندرة المواهب وجمالها، ومسألة استخدامها[٢].

هـذا النوع مـن الآراء هـو الذي يجعـل الصفحـات التسعمئة (٨٩٢ صفحـة على وجه الدقـة) من (ثروة الأمم) غـير المتضمنة في نسخـة (القارئ الليبرتـاري)، تستحق القـراءة. أو بعضها على الأقـل. لم يخطئ تـوم بالمر فيمـا يتعلق بالقـراءة المتمهلـة المتأنية لـ (ثـروة الأمم). إذ لا تتصل استطرادات سميـث كلها براقصات الأوبرا اللاتي تثنـين وتمايلن على أنغام مونتيفيردي (شبه عاريات كما نعتقد). هنالك على سبيل المثال (الاستطراد المتعلق بالتغيرات في قيمـة الفضة على مدى القرون الأربعـة الماضية). هنا، تستعمل الخدمـة الطويلـة (للمزارعـين من أصحـاب الأراضـي) في سبيل إبطـال الفكرة القائلـة إن لبعض السلع المعينة قيمـة ثابتة، أو نحن نريدهـا أن تكون كذلك. لكن بالنسبـة للقراء غير المهتمين بالتاريخ المكتوب لمورد العملة، يبدو الأمر مثل قراءة كتاب (النضج الحديث) باللغة الأوردية.

ربما قيدت ضخامة حجم الموضوع ذاتها رغبة سميث في الإيجاز. وربما فكر، وقد بلغ الثالثة والخمسين وتدهورت صحته عندما نشر (ثروة الأمم)، بأنه لن يؤلف كتابًا آخر. وهذا ما حصل فعلًا. فقد كان (لديه الكثير مما يريد قوله وسنحت فرصة مواتية)، على حد تعبير توم بالمر.

كان القرن الثامن عشر عصر وضوح التعبير – حقبة استراحة بين الأسلوب البياني المتأنق في العصر السابق، والأسلوب الرومانتيكي السخيف للعصر اللاحق. لكن أسلوب عصر الأنوار بقي مع وضوحه مبالغاً في الإطناب والإسهاب. ولم يُعّد الاستطراد، إن بدا مهمّاً، مشتتًا لذهن القارئ. ونظر إليه القراء بالطريقة ذاتها التي تنظر عبرها الأمهات العاملات في القرن الحادي والعشرين إلى تعدد المهمات. كانت القراءة أكثر بطئاً وتمهلاً في القرن الثامن عشر، ولدى القارئ فسحة زمنية أطول يخصصها لها، نظرًا لعدم وجود جهاز تلفزيون يستهلك وقت فراغه كله!

كتب إدموند بيرك(*)، الذي لم يخرج هو أيضًا عن أسلوب الاستطراد السائد، في رسالة إلى آدم سميث يقول: (أنت في بعض المواضع مثل السيد لوك في معظم كتاباته، مغاليًا في الإطناب والتطويل. لكن هذه نقيصة من النوع السخي، ومفضلة إلى أبعد

(*) (١٧٢٩-١٧٩٧): سياسي وخطيب بريطاني دافع عن قضايا حقوق الإنسان وجذب الانتباه إليها في خطبه. كما طالب بالمصالحة مع المستعمرات الأمريكية والتوقف عن ممارسة القمع في الهند. (المترجم).

حد على الأسلوب الجاف العقيم، الذي يرجح أن يسقط في فخه أصحاب المخيلات المملة البليدة)[٢].

كانت معرفة القراءة والكتابة بين عامة الناس ظاهرة جديدة نسبيًّا في عصر سميث، ولم يتصور أحد بعد الأسلوب الجاف العقيم في الكتب الحديثة لتدريس علم الاقتصاد. والكلمة المطبوعة أقرب ما تكون إلى الكلمة المنطوقة. ولا يزال الكلام مصدرًا للتسلية والترفيه. أما اليوم، فلا يمكن للدليل الأخضر لـ (مؤسسة ميشلين) أن يمنح نجمة امتياز إضافية إلى مطعم يقدم لزبائنه وجبة عشاء من خمسة أطباق في عشرين دقيقة. وللسبب ذاته، لم تكن البلاغة في الإيجاز، ولم يشتهر به الخطباء – والكتّاب بالتوسع – في القرن الثامن عشر. وربما يكون الإيجاز روح البلاغة والذكاء والظرف، لكن (ثروة الأمم) ليس دعابة أو طرفة. وعلى أي حال، كان الإيجاز في التعبير أسلوباً جديداً لم ينتشر إلا منذ مدة قريبة. على سبيل المثال، لم يتلق خطاب لينكولن في بتسبرغ استجابة حماسية. إذ بقي الأميون وأنصاف المتعلمين يفضلون الخطباء والخطب الحماسية والتهييجية على طريقة هوغو شافيز في فنزويلا، ومقدمي البرامج الإذاعية المحلية المملة.

كان آدم سميث خطيباً ممارساً مفوهاً. بدأ حياته المهنية، في إدنبرة، بإلقاء الخطب الفكرية المأجورة. وقضى ثلاثة عشر عاماً يحاضر في جامعة غلاسكو، أولاً بوصفه أستاذاً في المنطق، ثم في

فلسفة الأخلاق. فمهنته هي إلقاء المحاضرات. إذ لم يكتف أساتذة الجامعات في ستينيات القرن الثامن عشر بطرح الأسئلة المفتوحة للنقاش في الصف، ثم التشدق بالقول: (نتعلم من طلابنا أكثر مما نعلمهم). فالشكل يتبع الوظيفة. وتشبث آدم سميث بالقاعدة التي اتبعها خبراء الأسلوب التلقيني كلهم: قلْ ما تريد قوله، وما تقوله، وما قلته.

وفقاً لجون ميللار، أحد تلاميذ سميث، الذي سيصبح أستاذًا في جامعة غلاسكو أيضًا، كان أسلوب سميث (جافًا وواضحًا وبعيدًا عن الرشاقة.. لكن بمرور الزمن أصبح أكثر دفئًا وحيوية، وتميزت تعابيره بالسهولة والسلاسة)[٤]. أو، عبَّر عن رأيه بكل صراحة. وعلى الأصح يمكن القول إنه عبَّر عن رأيه إلى أقصى حد. لم يبق من محاضرات غلاسكو سوى بعض المقتطفات والملاحظات الناقصة التي دونها طلابه، لكن هناك أدلة فيها تثبت أنه بدأ يشكل أفكاره تحضيراً لـ (ثروة الأمم). إذ تمدد أسلوبه المنهجي المسهب ليشمل أحاديثه الخاصة. ذكر أحد أصدقائه: (كثيرًا ما قلت له بعد نصف ساعة من الحديث: سيدي، قلت ما يكفي لتأليف كتاب)[٥]. وهكذا، يبدو كتاب سميث أحيانًا وكأنه نسخة مكتوبة لتنصت على مكالمة هاتفية بين عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، باستثناء الأفكار الأكثر عمقًا والألفاظ البذيئة.

(قلت ما يكفي لتأليف كتاب) تعليق صحيح أيضًا لأن سميث أملى كتاب (ثروة الأمم) على الأرجح. إذ زعم أنه وجد فن

الكتابة باليد بطيئًا وصعبًا، وأظهر ذلك خطه الرديء ومراسلاته الشخصية. ربما جعلت الطبيعة المسهبة للإملاء وما تتصف به من إطناب وحشو (ثروة الأمم) كتابًا طويلاً وضخمًا، لكن يجب ألا نشتكي من ذلك. فمعظم الكتاب يطيلون في الكلام وكثيرًا ما استهلكوا ما يمتلكونه من مهارة لفظية مفوهة في أحاديثهم الفارغة بدلًا من كتاباتهم. هنا، يمكننا مغايرة ما يتصف به كل من سميث والدكتور جونسون(*) من مهارة وألمعية. في هذه الأيام، يجب أن نلجأ إلى بوزويل(**) لنتعرف العبارات الذكية واللماحة للدكتور، التي لا تتمثل تمثيلًا جيدًا في أسلوبه الممل والكئيب في الشعر والنثر.

ثمة سبب آخر للطبيعة المتوسعة والمطولة لـ (ثروة الأمم) يجسده جهده المبذول (الذي يذكر بهنري جيمس) لتحديد عباراته وجعلها ملائمة لإنتاج المعنى الدقيق الذي أراده. وبالطبع، كان سميث يتعامل مع الواقع الحقيقي، لا الحالة الذهنية العابرة والمشوشة للطبقة الغنية المصابة بالسأم كما تبدو في هذيان العجائز. فضلًا عن أن جمل سميث تنتهي قبل أن تطول كثيرًا. وحين تصل إلى النهاية يكون المعنى قد اتضح. على سبيل المثال، نقدم جملة من الاستطراد آنف الذكر عن الفضة:

يجب أن نتذكر دومًا أن العمل، لا أي سلعة أخرى أو مجموعة من السلع، هو المقياس الحقيقي لقيمة الفضة والسلع الأخرى كلها في آن معًا[٦].

(*) صمويل جونسون (١٧٠٩-١٧٨٤): ناقد، وشاعر، ومعجمي، ومحدث إنجليزي مفوه. (المترجم).
(**) جيمس بوزويل (١٧٤٠-١٧٩٥): مؤلف اسكتلندي ومؤرخ مخلص لسيرة صمويل جونسون. (المترجم).

يمكن اختصار الجملة السابقة ببضع كلمات: (العمل.. هو مقياس.. القيمة). وعند الاقتباس من آدم سميث، تمثل (..) (المحذوفة) أكثر ما قاله مضاء وحدة وأهمية. وربما كانت هذه الكلمات المحذوفة الحادة في (ثروة الأمم) هي التي جعلت كارل ماركس مجنونًا. لنلاحظ عند قراءة جمل آدم سميث الأصلية أن (نظرية قيمة العمل) الماركسية العظيمة لم تكن قد ابتكرت بعد. بل إن سميث - بعد ثلاث مئة صفحة -، يقدم النوع ذاته من الحجج عن الحبوب الغذائية: (في نهاية المطاف، تقاس القيمة الحقيقة لكل سلعة أخرى وتقرر.. بواسطة السعر النقدي الوسطي للحبوب)[٧]. ومن ثم، يؤكد أن العمل (أو عنصرًا وثيق الصلة به، مثل رغيف خبزنا اليومي) يوفر مؤشرًا منطقيًّا لتقرير كم تساوي الأشياء الأخرى بالنسبة لنا. إن تقرير هل نقصّ العشب بأنفسنا أو نكلف ابن الجيران بقصه - مع الأخذ في الحسبان احتمال أن يأكل طعامنا وقت الغداء، ويصيب قدمه بجرح، ويقاضينا، فنضطر إلى البحث عن وظيفة أخرى لدفع تكاليف الإجراءات القانونية - هو أمر يفعله الكل على الدوام. والماركسية، مثلما اكتشفت الأنظمة الماركسية على اختلاف أنواعها، فكرة لن يطبقها أحد أبدًا لو استطاع إلى ذلك سبيلًا (بالمناسبة، إذا كانت نظرية قيمة العمل صحيحة، سيكون بعض الأطفال أقل قيمة من سواهم).

يعوض الذكاء الحاد لكتابة (ثروة الأمم) عن العمل المضني الذي تتطلبه قراءته المتأنية. كما يكتشف القارئ شيئًا آخر ذا

قيمة – شيئًا لم يلمح له الاقتصاديون أو الباحثون – ألا وهو روح الدعابة التي يتميز بها سميث. ها هو يقوض فكرة أن على الأمة تجنب استيراد السلع التي تُستهلك، والتشبث بدلاً من ذلك باكتناز الذهب والفضة، لأن للمال قيمة دائمة:

لذلك، لا شيء مما تدعيه يمكن أن يتجاوز في ضرره (لأي بلد) التجارة المكونة من تبادل مثل هذه السلع الدائمة مقابل تلك المستهلكة. لكننا لا نفترض أن التجارة ضارة حين تتألف من تبادل الخردوات المعدنية الإنجليزية مقابل العطور الفرنسية؛ مع أن الخردوات سلعة أكثر متانة وتحملاً، ولولا هذا التصدير المتواصل، الذي تراكم على مر العصور، لما حظيت القدور والأباريق بهذا الدعم غير المعقول في البلد[٨].

تتبدى المواضع التي لا يُعوض فيها الجهد المرهق المطلوب لقراءة (ثروة الأمم) على الدوام عند الخوض في الفقرات الصعبة التي يحاول فيها سميث صياغة ميدانه الفكري. وعلى وجه الخصوص عندما يحرث في البراري الشاسعة البور لعلم الاقتصاد الإحصائي (وهو الرائد الوحيد في هذا المجال). إذ لم تتوافر إحصائيات موثوقة في القرن الثامن عشر، ولم توجد بالتأكيد مجموعة منها تغطي عقودًا ماضية من السنين. وعبر القراءة الواسعة والمراسلات المطولة، تمكن سميث من العثور على أرقام لتوكيد نظرياته. لكن تطلب كل رقم التفحص الدقيق للتأكد من صحته وفائدته

للمقارنات. وعلينا البقاء هناك مع سميث وهو يتفحص التفاح والبرتقال بتمهل وترو مثل عجوز صعبة الإرضاء في أسوأ متجر للخضار والفواكه في العالم.

بعد ذلك يخضع سميث البيانات الرقمية لتحليل بياني مفصل في غياب العنصر الضروري الذي لا غنى عنه: الرسوم البيانية. رسم أول تمثيلات بيانية مفيدة للإحصائيات مواطن آدم سميث الاقتصادي الاسكتلندي وليام بليفير عام ١٧٨٦، أي عند المراجعة النهائية لمخطوط (ثروة الأمم). عرف سميث بليفير، الذي كان شقيقًا لصديق مقرب منه. لكن للأسف، لم يعترف النابغة بالنابغة. في الحقيقة، لم يعترف نابغان اثنان به. قال الاقتصادي جيرمي بينثام(*) عن أفكار وليام بليفير الاقتصادية: (تسعة أعشارها مكتوبة بمذكرات سيئة)[٩]. وبوصفه مفكرًا لا مساحًا، كان بليفير مبتدئًا، لكنه رغب في أن يبدي سميث اهتمامًا بالشاب المبتدئ. ربما أمكن لمئات الصفحات في (ثروة الأمم) التي يمر عليها القراء مرور الكرام اختصارها في عدة صفحات يمكن تجاهلها كلية.

ثمة شيء آخر يفتقر إليه سميث، إلى جانب الرسوم البيانية، هو اللغة الاصطلاحية المتخصصة. فقد كان الاقتصاديون في مرحلة جديدة ومبكرة بحيث تعذر عليهم تطوير لغة من الكليشيهات الشائعة. وحين تعذر ذلك على فهم آدم سميث، لم يجد تعابير

(*) (١٧٤٨- ١٨٣٢): خبير قانوني وفيلسوف إنجليزي. (المترجم).

تقنيـة وجيـزة ومثيرة تشكل لغـة اختزالية تحل محـل اللغة المفككة التي افتقـدت الترابط والاتساق. واضطـر إلى المبالغة في الإسهاب والتطويل الممل لشرح الموضوع (وإنهاك القارئ معه).

لكـن لا بـد أن يطول الكتـاب في الأحوال كلهـا. إذ اشتق عصر الأنوار اسمـه، من منظورنا الآن، من لحظة كاريكاتورية ساخرة في التاريـخ الفكري. فقد بدت المصابيـح الكهربائية – التي لم تخترع بعـد – مضاءة فـوق رؤوس مفكرين مـن أمثـال آدم سميث، الذين أدركـوا أن العالم المادي ليس كيانًا غامضًا مقدسًا لا سبيل إلى فهم كنهه إلا بالطقوس الدينية والتأملات الغيبية. بكلمات أخرى، عرفوا أن عـدم النظر إلى الأشياء ليـس أفضل طريقة للنظر إلى الأشياء. فـإذا أنيرت آليـة الطبيعة بشيء من الملاحظـة والفكر، يمكن رؤية طريقـة عملها. الكون قابـل للتفسير. وسوف يفسـره مفكرو عصر الأنوار، الذين يجسدون (المحرك الأول).

لكـن القابلية للتفسـير واجهت المصاعب، مثلمـا تمترس عدم القابليـة للتفسـير في حصونـه المريحـة. لنأخـذ على سبيـل المثال مسألتـين اثنتـين كان يفسرهمـا آدم سميـث (وتطرقنـا إليهمـا آنفًـا): ١) ليـس للمال قيمـة موضوعية؛ ٢) المـال تعبير رمزي عن القيمـة الذاتيـة، لأن في أي تبادل لسلعـة (أو خدمة) بين شخصين يحصل كلاهمـا على أفضل جانب من الصفقة. هـذا لا يعني أننا، نحـن الذين يقـدم لنا ذلك مفسرًا، أغبياء. لكـن كل مدير تنفيذي حديـث يتلقى تعويضات ضخمة قد جـرب التفسير الأول معنا. وكل

تاجر سيارات يحاول تقديم الثاني حين نعرض عليه صفقة مبادلة سيارتنا القديمة بأخرى جديدة.

تبدأ التفسيرات كلها وجيزة مختصرة. لكن سرعان ما يعلق سميث في متاهة متشابكة من التوضيحات، ليقبض عليه القارئ متلبسًا، مثل زوج عائد إلى البيت في الثالثة فجرًا وهو يظن أن زوجته نائمة، بينما هي تقف متيقظة غاضبة في انتظاره!

تبدأ التفسيرات كلها وجيزة مختصرة، باستثناء المسائل القانونية بالطبع. ولا يشذ (ثروة الأمم) عن ذلك. كرس آدم سميث مئة صفحة لإدانة النظام التجاري. إذ مثلت الميركانتيلية(*) النظرية الاقتصادية السائدة في عصره - إن جازت تسميتها نظرية. في الحقيقة، كانت الميركانتيلية (كيس خرق بالية) من الأنظمة التجارية والسياسات الضريبية والتعريفات والرسوم الناجمة عن سياسة المصلحة الخاصة، ونفوذ الباعة المتجولين، والصفقات البرلمانية، مجمعة كلها مع سوء فهم عام للنقد، وتدفق رأس المال، والتمويلات الحكومية. واعتقد دعاة الميركانتيلية أن الطريقة الفضلى لجعل الأمة غنية هي زيادة صادراتها والحد من وارداتها. المثال المتطرف الذي يدعم حجة سميث ضد الميركانتيلية هو: الواردات تمثلها مشتريات التسوق في صبيحة عيد الميلاد؛ والصادرات تمثلها فاتورة بطاقة الائتمان في أول يناير!!

(*) نظام اقتصادي أوروبي أيد الاستيلاء على المستعمرات التي توفر المواد الخام والأسواق، وتحرر الدولة المستعمرة من الاعتماد على الدول الأخرى. (المترجم).

يوجه (ثروة الأمم) أصابع الاتهام إلى السياسيين والتجار الأغنياء في العالم كله. لكن هؤلاء أيضًا أعضاء في هيئات المحلفين، وقضاة، ومسؤولون في المحاكم. والمفاجئ أن قرار تبرئة دعاة الميركانتيلية لم يكن فوريًّا. قبل وليام بت، رئيس الوزراء البريطاني في أواخر سنوات سميث، الدليل المقدم وأجرى بعض الإصلاحات التي اقترحها (ثروة الأمم). في حين تجاهلها الكسندر هاملتون، مهندس السياسة الحمائية الأمريكية. لم تحسم القضية حتى الآن بعد نشر الكتاب بأكثر من قرنين وربع القرن - وظهور دعاة الميركانتيلية الجدد الذين يحكمون الصين، ومعارضة العولمة المنتشرة في مختلف أرجاء العالم، والحجارة التي ترمى بين الحين والآخر على نوافذ مقاهي (ستاربكس) لأنها لا تعزز (التنمية المستدامة).

في هذه الأثناء، يواصل آدم سميث تقديم الشهادة. (ثروة الأمم) أكثر من مجرد تفسير، أو تحليل، أو حجة. إنه موعظة طويلة. موعظة جحيمية. اشتهر سميث بمحاباة مبدأ عدم التدخل الحكومي في الاقتصاد (وهو تعبير لم يرد في كتاباته)، وبثقته المزعومة بـ (اليد الخفية) الدافعة للتقدم الرأسمالي. لكنه عرف بأن اليد يمكن أن تقبض وتحتكر: (نادرًا ما اجتمع التجار العاملون في المجال نفسه.. لكن - حين يلتقون - ينتهي الحديث بينهم بمؤامرة على عامة الناس)[١٠].

أدرك سميث أن الاقتصاد الاستهلاكي المزدهر لن يغير الطبيعة البشرية: (كبرياء الرجل تدفعه إلى حب الهيمنة، ولا شيء يذله مثل اضطراره للتنازل وإقناع مرؤوسيه)[١١]. حقًا، هذا ما نشعر به في كل مرة نطلب أجرًا على خدماتنا أو بضائعنا.

اعتقد سميث فعلاً أن الأسواق الحرة يمكن أن تحسن حال العالم. قال ذات مرة، في محاضرة ألقاها أمام جمهور من المتعلمين، إن التقدم لا يتطلب (أكثر من.. السلام، وتخفيض الضرائب، وإدارة رشيدة متساهلة)[١٢]. لكن هذه العناصر الثلاثة، كانت - وما زالت - أندر العناصر في العالم.

انتقد سميث الحمل الجاذب للسلطة والامتيازات الذي سيرهق دومًا - إن استطاع - حياتنا وعيشنا. (ثروة الأمم) متراس حصين من المواعظ الأخلاقية عن الحرية والمشروعات الحرة النزيهة. المواعظ تترى فيه، لكنها يجب أن تبقى زمنًا طويلاً للسبب ذاته الذي يجعل الأسوار والجدران الحجرية باقية. والجدار لا يثبت السقف الذي يوشك على الانهيار فوقنا.

٣

نظرية العواطف الأخلاقية ومحاولة آدم سميث تنظيف (إسطبلات أوجياس)(*) المشابهة للوضع الإنساني

العنوان الفرعي غير المطبوع لهذه السلسلة التي تنشرها مؤسسة (غروف/أتلانتيك) (Grove/Atlantic) وتشمل الكتب التي غيرت العالم، هو: (أعمال لن تقرأها – كما يجب أن نعترف – بكليتها). ولوليام كريستول، رئيس تحرير مجلة (ويكلي ستاندارد)، الذي يتفوق علي في سعة الاطلاع، عبارة بليغة لوصف مثل هذه الأسفار الضخمة: (يجب أن نقرأ فيها). من حسن الحظ أنه يمكننا تطبيق ذلك على (ثروة الأمم). ومن سوء الحظ، أن هناك كتابًا ألفه سميث قبل (ثروة الأمم) لم نقرأه قط: (نظرية العواطف الأخلاقية)، الذي نشر عام ١٧٥٩. ولا يمكن فهم اللاحق دون فهم السابق.

(*) (في الأساطير اليونانية) تمثلت إحدى مهمات هرقل في تنظيف إسطبلات الملك أوجياس التي لم تنظف منذ ثلاثين سنة، في يوم واحد. أنجز هرقل المهمة حين حول مجرى نهرين ليمرا عبرها. (المترجم).

كرس آدم سميث معظم حياته المهنية لمشروع فلسفي وحيد: تحسين الحياة المعاشة. ويشعر القارئ الحديث بإغراء يدفعه إلى الضحك. فالمهمة ضخمة وصعبة وشاقة.. ومسلية. لكن كثير منا تولوا القيام بمهمات من هذا القبيل، مثل تربية الأطفال. إذ تغوينا للدخول في المشروع مسراتُ البدايات - إذا جاز التعبير. البدايات الجديدة ممتعة ومبهجة دومًا. وآدم سميث يقع - فكريًّا - في عشق فكرة التحسين البكر. حظي احتمال إدخال تحسينات بالجملة على الحياة العادية في القرن الثامن عشر بالسحر ذاته الذي تحظى به احتمالات جعل الحياة في أيامنا هذه أكثر بساطة وأقل تعرضًا للضغوط والتوتر (مع منع الرسائل غير المرغوب فيها من الوصول إلى بريدنا الإلكتروني!).

انطلق سميث لفهم كيفية ظهور منظومات الأخلاق والاقتصاد والحكم، وكيف يمكن للناس تحسين ظروفهم الأخلاقية والمادية والسياسية، من فهم طريقة عمل هذه المنظومات. كانت تلك فرصة ثمينة للتفاخر والتباهي، لو انتهزها مفكر حديث - مثل هيربرت ماركوزه، أو نيوت غينغريتش، أو آل فرانكين - للخوض في هذا الموضوع. لحسن الحظ، تمتع سميث بمهارة عصر الأنوار في عرض الأفكار العميقة دون أن يسبب لنا الإحراج أو الإزعاج. وتمثل سره المكنون في القدرة على بلوغ المثالية دون اتخاذ تلك الخطوة اللاحقة، المزعجة والمنبتة الصلة عما سبقها، للتحول إلى حالم من أصحاب

الرؤى. لم يزعم امتلاك (مخطط تفصيلي للمجتمع)، لكنه افترض أن البنـاة الجهلة وغير المؤهلين للمجتمع (مثلـه ومثلنا) لا يمكنهم اتباع مخطط محدد على أي حال. كتب يقول: (في الحقيقة، إن توقع استعـادة حرية التجارة كلية في بريطانيا العظمى يماثل سخف توقع تأسيس أوشيانا أو المدينة الفاضلة فيها)[1].

اختار سميث مقارناته مع السخف العبثي وعينه على أمثال نيوت غينغريتش[*] والـرؤى الحالمة المغالية في أوهامها التي سبقت عصر الأنـوار. كانت المدينة الطوباوية الفاضلة التي تخيلها توماس مور في القرن السادس عشر عبارة عن جزيرة يعيش عليها سكانها بأسلوب جماعي ويشتركون في أملاكهـا المشاعة. واشتق اسمها من الكلمتين اليونانيتـين المتماثلتين لفظًا/ outopus ، eutopos/ وتعنيان/ المكان الطيـب واللامكان/. أمـا أوشيانا فهي مكان مشابـه تخيله قبل مئة سنـة جيمـس هارينغتون الـذي اقـترح سياسات اجتماعيـة خيالية ومستبعدة التحقق مثل إلغاء الدعم الزراعي عن المزارعين الأثرياء. أمـا الطبعـة الحادية عشرة مـن الموسوعة البريطانيـة فقد وصفت كتاب هارينغتون (أوشيانا) بأنه (ممل إلى حد يتعذر إصلاحه).

لكـن كتابـات آدم سميث ليسـت كذلك. في الجـزء الثالث من (ثـروة الأمم) عشرون صفحة تتناول قوانين حظر تصدير الحبوب تمثل قراءتها اختبارًا صعبًا لتحمل القارئ. لكن عند نهايتها يجذب

(*) (١٩٤٣-): سياسـي أمريكي (جمهوري) ورئيس سابق لمجلس النواب (١٩٩٥-١٩٩٨). عرف بمسعاه العنيد لتحقيق المثل العليا المحافظة، والمطالبة بتقليص سلطات الحكومة الاتحادية. (المترجم).

انتباهه ويعيد إليه اهتمامه بسحر تواضعه في التسليم بصحة مثل أعلى. إذ أدان ظلم هذه القوانين الفادح، لكنه لم يتابع التشدق كما نتوقع اليوم من أولئك الذين يظنون أنفسهم على صواب دومًا. بدلًا من ذلك توصل إلى نتيجة متواضعة دون نسيان حماقات السياسة المحتومة: (ربما نقول عنها ما قيل عن قوانين سولون، أي على الرغم من أنها ليست الأفضل في حد ذاتها، إلا أنها أفضل ما تسمح به المصالح والأحكام المسبقة والمزاج السائد في العصر)[٢].

لولا هذا التواضع لكانت قراءة مشروع آدم سميث الفلسفي تشبه في تجهمها وكآبتها العيش في ظلال المشروع الفلسفي لكيم جونغ إيل في كوريا الشمالية. امتد موقف سميث المتواضع فيما وراء الأفكار المثالية إلى الأفكار نفسها، إلى تقديره لذاته. في مقالة مبكرة بعنوان (تاريخ الفلك)، كتب سميث يقول إنه (يسعى إلى تمثيل المنظومات الفلسفية كلها بوصفها ابتكارات للمخيلة، ووصل ظواهر الطبيعة المنفصلة والمفككة معًا)[٣]. وتابع ليعاقب نفسه على الغلو في الاتفاق أيضًا مع فيزياء السير إسحق نيوتن (باستخدام لغة تعبر عن ارتباط مبادئها معًا.. كأنما هي السلاسل الحقيقة التي تستعملها الطبيعة لجمع عملياتها المتعددة معًا)[٤]. تطلب الأمر نابغة كإنشتاين ليظهر مدى صواب سميث.

أراد سميث نشر ثلاثة (ابتكارات إبداعية للمخيلة): (نظرية العواطف الأخلاقية)، و(ثروة الأمم)، وكتاب عن مبحث القانون،

أي عـن تلك الروابط الأكـثر ابتكارًا وخيالًا، بـين القانون والحكم. لم يستكمـل الأخير قـط، وقبيل وفاته حرق ملاحظاتـه ومسوداته. وربمـا هناك سبـب وراء ذلك. فكثير من أفـكار سميث عن القانون والحكـم تتبدى بجلاء في أول كتابين. ولم تضف ملاحظات الطلاب التي سجلت محاضراته التي ألقاها عن مبحث القانون في ستينيات القرن الثامن عشـر الكثير إلى جملة أفكاره وتفكيره. دعونا نعترف بحكمتـه المتفوقة. يجب أن يكفينا العمـل الصالح والجهد المحمود. أما أن نطالَب بواجب الإصغاء إلى الخطب في الحملات الانتخابية، والمساهمة بأموالنا فيها، ثم التصويت لمصلحة الحمقى، فهذا يفوق الاحتمـال. ومثلمـا أعلن سميـث نفسه في (العواطـف الأخلاقية): (ربما نحقق قواعد العدالة عبر الامتناع عن فعل أي شيء)[٥].

وربمـا ينبثق إحساسنـا بالصواب والخطأ والحـق والباطل من هذه العطالة والامتناع عن القيام بأي نشاط، وذلك وفقًا لـ (نظرية العواطف الأخلاقية). فأهم ابتكار إبداعي للمخيلة هو الأخلاق.

يستهـل سميث (العواطف الأخلاقية) بلغز تعتمد عليه سعادتنا كلهـا: (إلى أي حد تصل أنانية الإنسـان المفترضة؟ تتبدى بوضوح بعض المبـادئ في طبيعته، تثير اهتمامه بحظـوظ الآخرين، وتجعل سعادتهـم ضرورية له، مع أنـه لم يستمد منها شيئًـا)[٦]. أما جذر هـذه المبـادئ فهو التعاطف، وفقًـا لسميث. نحن كائنـات متعاطفة مـع الآخريـن. ونمتلـك عاطفة واحـدة لا يمكن تصنيفهـا من قبل

المتشككين في الدوافع الإنسانية في خانة الجشع أو الخوف. وهي ليست الحب. فربما نحب دون الشعور بالتعاطف مع الآخرين، مثلما فعل جون هينكلي(*) حين (أثبت حبه) للممثلة جودي فوستر.

يزودنا التعاطف بالقدرة، والحماس، والرغبة في مشاركة أشخاص لا نحبهم أبدًا مشاعرهم. نحب مشاركتهم أحاسيسهم النبيلة والوضيعة في آن. نستمتع بالتعبير عن تعاطفنا مع أحزان الغرباء عنا تمامًا. ونتشوق لمشاركة الآخرين في أتفه أحاسيسنا. بل نتخلى كما كتب سميث: (حتى عن روح الدعابة إذا ضحك صديق على دعابة بصوت أعلى أو مدة أطول مما نظن أنها تستحق)[٧].

ينتج هذا التعاطف، كما أكد سميث، عن المخيلة لا عن مدركاتنا الحسية مثل معظم المشاعر. وبغض النظر عن مدى حدة التعاطف الذي تثيره الحالة، لا نشعر - جسديّاً - بألم الآخرين. وفي دحض استباقي لمنطق أي رئيس مستقبلي للولايات المتحدة، استخدم سميث مثال رؤية شقيق على المخلعة(**). أعلن سميث: (لم تحاول حواسنا، ولا يمكن أن تحاول، جرنا إلى ما وراء ذواتنا الشخصية)[٨]. فمخيلتنا هي التي تولد التعاطف وتمنحه قوته.

يتمتع الناس بالموهبة الإبداعية الابتكارية التي تضعهم في مكان الآخرين، وتجعلهم يشعرون بشعورهم. حتى أكثرهم سطحية

(*) في الثلاثين من مارس عام ١٩٨١، أطلق هنكلي النار على الرئيس الأمريكي ريغان. ووجدته المحكمة غير مذنب بسبب جنونه وأودعته مصحة للأمراض العقلية. (المترجم).

(**) أداة تعذيب (قديمة). (المترجم).

واستهتارًا وطيشًا يمتلكون هذه الموهبة الإبداعية (نحن ندعوهم بالمثلين).

لكن التعاطف بحد ذاته - مع البشر، أو الحيوانات، أو آل كلينتون - لا يمكن أن يشكل الركيزة المؤسسة لأي منظومة أخلاقية. وإلا سيعد مشاهد التلفزيون الذي يقضي سحابة النهار أمام شاشته قديسًا. كتب سميث يقول: (يجب ألا يرضى بأعمال الخير الكسولة، ولا يتخيل نفسه صديقًا للبشرية، لمجرد أنه يرغب من صميم قلبه في رخاء العالم وازدهاره)[٩].

على المخيلة، التي تعمل على إظهار مشاعر الآخرين، أن تبذل جهدًا أكبر لتظهر لنا ماهية شعورهم: هل هم على صواب أم خطأ. ثم هنالك مشكلة هل نحن على صواب أم على خطأ. سوف نشعر على الدوام بكثير من التعاطف مع أنفسنا. (لسنا على استعداد للاشتباه في إصابة أي شخص بآفة الأنانية. وهذا لا يمثل أبداً الجانب الضعيف من الطبيعة البشرية)[١٠]، كما كتب سميث. لا يمكن للأخلاق أن تكون مجرد حزمة من المشاعر النبيلة، أو قرصًا نبتلعه لنصبح أخلاقيين.

يجب أن تتولى مخيلتنا القيام بالمهمة الإضافية المتمثلة في إيجاد طريقة لإطلاق أحكام صائبة على مشاعرنا وعلى مشاعر الآخرين وعلى الأفعال التي تسبق هذه المشاعر. جسد آدم سميث أحكام المخيلة الواعية هذه وسمى القاضي الأخلاقي في أدمغتنا

(المشاهد الحيادي). وربما كان ذلك إشارة مراوغة إلى مقالات جوزيف أديسون وريتشارد ستيل التي نشرت في بدايات القرن الثامن عشر في صحيفة (المشاهد) (Spectator)، (حيث المشاهد لا يلعب دورًا عمليًّا في الحياة). كان ذلك مشابها لقول أوبرا وينفري إنها لا تشارك بأي دور. لقد توقع سميث عبر (المشاهد الحيادي) ظهور مضيفي البرامج التلفزيونية الذين ينشرون التعاطف في كل مكان ويأخذون دور الحكم في هذه المشاعر. وبالطبع، لم يكن ناضجًا من الناحية التقنية. وكان على أوبرا ذاتها الانتظار إلى أن يصل تقسيم العمل إلى مرحلة يقوم فيها المختصون بالتخيل نيابة عنا.

أنتج (المشاهد الحيادي) عرضًا لعصر أكثر جدية: (الفلاسفة النفعيون الذين يعانون الحب المسيحي!). يمكن لكتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) أن يتحول إلى عرض تلفزيوني نهاري إذا أنتجته محطة بي بي إس (PBS)، وقدمه مضيف يشبه بيل مويرز في كل شيء، باستثناء ذكائه.

يجب أن يكون المضيف على مستوى ذكاء سيغموند فرويد على أقل تقدير. وصف سميث أيضًا عملية الأنا العليا قبل فرويد بزمن طويل، وبأسلوب أكثر حذقًا وذكاء. ومنحها اسمًا لم يشابه بطل قصة هزلية. ووصل ضميرنا بسمات وخصال إنسانية أكثر نبلًا ومعقولية مما يدفع كلبًا أليفًا للتمسح بأرجلنا.

نحن نتصور المشاهد الحيادي بوصفه يمتلك معرفة كاملة بظروف كل فرد، وتجربته، ومقاصده. ولأنه متخيل موهوم لا ذات

لـه، ليست له مصلحـة شخصية في أي حكم يصـدره. زعم سميث أن ما نفعله، حـين نطور المبادئ الأخلاقية، هو صياغة ما لدينا من مشاعـر التعاطف في أفـكار وأفعال نتوقعها مـن المشاهد الحيادي، المتعاطف لكن الموضوعي والعارف بكل شيء (ولا يزال متعاطفًا على أي حال).

(حين تكـون مشاعرنـا المستكينة على هذه الدرجـة من السوء والأنانيـة دومًا، فكيـف تكون مبادئنـا الفاعلة على هـذا القدر من السخـاء والنبـل؟)[١١]، حسبمـا يسـأل سميـث. الإجابـة تكمن في (ساكن الصـدر.. القاضي العظيم والمحكم الكبـير لسلوكنا)[١٢]. إن معاينـة الأشياء من منظور المشاهد الحيـادي تعلمنا الانضباط الذاتـي العاطفي الذي نحتاج إليه للتصـرف بحكمة مقبولة. فكروا بسلـوك الأطفـال الذيـن لم يتلقـوا بعـد تعليماتهم الأخلاقيـة، أو السكارى الذين نسوا كل شيء عنها.

بفضـل تعاطفنـا الناتج عن المخيلـة، نسعد لسعـادة الآخرين، ونحزن لحزنهم، ونأمل أن يبادلونا الشعور ذاته. لكن هذه المشاركة العاطفيـة مجهدة ومرهقة. علينا تحفيـز مخيلتنا لكي نضع أنفسنا محـل الذين تتجاوز مشاعرهم مشاعرنا في القوة والشدة - ونندب مـوت كلب صديق هرم أعرج. يجب أن نسيطر على عواطفنا حين لا تكون مشاعر الآخرين بقوة مشاعرنا ذاتها - ويضحكون بأدب حين نندب كلبنا الأليف ونتذكره.

وفقاً لآدم سميث، يستخدم (الحكيم الفاضل) مخيلته لإبداع (فكرة اللياقة والأدب والكمال). وهذه (تتشكل بالتدريج من مشاهداته وملاحظاته ومسلكه ومسلك الآخرين. عمل بطيء وتدريجي وتقدمي لنصف الإله العظيم الرابض في داخلنا)[١٣]. وإذا لم يسع المشاهد الحيادي لتعليمنا (حماية الضعيف وكبح جماح العنيف ومعاقبة المذنب)[١٤]، سوف يدخل الإنسان (إلى أي مكان يتجمع فيه البشر كأنه يدخل عرين الأسود الضارية)[١٥]، كما كتب سميث. أو غرفة أطفال، أو حانة سكارى. أو كأنما يشارك في عرض تلفزيوني نهاري، أو يجلس في مقعد كلبه المحبوب الميت.

يكشف إدراك آدم سميث للدور الرئيس للمخيلة في التفكير الأخلاقي عدداً من الجوانب المتعلقة بالأخلاق. الأخلاقيات نتاج جهد. والسبيل القويم للسلوك الأخلاقي ليس جزءًا من معرفة غامضة لا يمكن اكتسابها إلا بقراءة نصوص غريبة مبهمة. وعلى القدر ذاته من الأهمية، لا يمكن تعلم الأخلاق عبر القراءة الحرفية النصية للكتاب المقدس. أكد سميث أن (الوصايا العشر تأمرنا باحترام الأبوين وطاعتهما. ولم تذكر حب أطفالنا)[١٦]. إذ لم يضمنه الرب فيها لأنه لا يعدّنا عصبة من الحمقى المحرومين من المخيلة المبدعة. فتعاطفنا مع أطفالنا لا يحتاج إلى وصايا. أما تعاطفنا مع آبائنا وأمهاتنا.. حسناً.. بالمناسبة هل زرت والدتك هذا الأسبوع؟ أم أجلت الزيارة بسبب مشاغل ملحة؟

تخيّل الأشياء عمل. والمخيلة التي يصفها آدم سميث ليست نزوة سهلة، غريبة ومتقلبة، كتلك التي نفرضها على أطفالنا، الذين نتعاطف معهم كثيرًا كما هو مفترض. لا يوجد شيء في (نظرية العواطف الأخلاقية) يشابه الديناصورات الضخمة الملونة والخرافية من آكلات العشب التي تظهر في برامج الأطفال التلفزيونية. فالغناء مع (بارني الذي سيصبح صديقك أيضاً/إن صدقته) يؤدي في أفضل الاحتمالات إلى إنتاج تفاهات مثل أوشيانا. قيل إن كيم جونغ إيل مغرم بالسينما، وربما يعيش حياة خيالية تثير أوهامها مجموعات ضخمة من أقراص الفيديو المدمجة.

المخيلة التي يصفها سميث هي المخيلة الفاعلة التي تمتع بها إنشتاين أو نيوتن، بكل ما تتضمنه من انضباط. (لا يعد التحكم بالذات فضيلة كبرى فقط، بل يبدو أن الفضائل الأخرى كلها مستمدة من بريقه الأساسي المتلألئ)، مثلما يكتب سميث[١٧]. و(لا توجد فضيلة في الدرجة العادية الشائعة من الأخلاق. فالفضيلة هي الامتياز)[١٨].

يربط هذا العمل الإبداعي الصعب التعاطف الأخلاقي المحوري في (نظرية العواطف الأخلاقية) مع التعاون المادي الضروري في (ثروة الأمم). على المخيلة أيضًا بذل جهد خلاق لتقسيم العمل وممارسة التجارة. ويمثل التعاطف والتعاون الجانبين الأكثر إدراكًا والأقل إدراكًا لما يتيح للحضارة الوجود. فهما (المبدآن المتأصلان في طبيعة الإنسان، اللذان يثيران اهتمامه بحظوظ الآخرين).

ينطبق هذا كله علي. فأنا أكثر وعيًا إلى حد ما حين أكون طيبًا مع الأسرة في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع، وأقل وعيًا بها في المكتب صباح يوم الإثنين.

رأى سميث إمكانية أخلاقية في اهتمامنا بالآخرين وبمصلحتنا الشخصية على حد سواء. حين نعطي أحدهم زجاجة شراب نعلم أننا أفدنا شخصًا آخر. وحين يتركز اهتمامنا على الأسرة في عطلة نهاية الأسبوع، ونشرب تلك الزجاجة، نعلم أيضًا أننا أفدنا شخصًا آخر – صاحب المعصرة، ومعبئ العصير، وصاحب المخزن. وعندما نشعر بالانفصال والتنافر يوم الإثنين، لا ندرك ذلك إلا إذا عملنا على (ابتكارات للمخيلة، لوصل ظواهر الطبيعة المنفصلة والمتنافرة). كان نظام الفائدة غير المقصودة هو ما عناه سميث بـ (اليد الخفية)، وهو مفهوم ظهر أول مرة في (نظرية العواطف الأخلاقية)[١٩].

إذا لم نقم بأداء العمل الصعب الذي يتطلبه التعاطف المنتج في المخيلة، نضع أنفسنا في ما دعاه سميث (أسوأ الحالات وأكثرها خسة ووضاعة، ونفقد الإحساس الكلي بالسلوك الشريف والمسلك المشين، والرذيلة والفضيلة)[٢٠]. الأشرار شخوص متخيلة في المخيال الشعبي العام فقط. وقد تبدو فضائح الشركات التي تفجرت في السنوات الأخيرة مخططات مبتكرة وأصيلة لعبقرية شريرة. لكن حين يزول الغموض عن الحسابات والأموال، تتكشف اليد المبتذلة المختلسة.

يمكن لرجال الشرطة، والقضاة، والندل، والآباء والأمهات، وغيرهم أن يشهدوا على صحة وصف هانا إرنت(*) لسلوك أدولف أيخمان(**): (ابتذال الشر). الابتذال هو المكون الرئيس في التفكير الإجرامي – بدءًا بالمحتالين والبؤساء وانتهاء بأعلى المستويات في التراتبية الهرمية النازية.

من الخطأ قراءة (ثروة الأمم) بوصفه تبريرًا يسوغ الجشع المحايد أخلاقيًّا. فهو يمثل محاولة إضافية لآدم سميث لجعل الحياة أفضل حالًا. كتب يقول في (نظرية العواطف الأخلاقية): (من أعظم قوانين المسيحية أن تحب جارك كما تحب نفسك)[٢١]. لكن للملاحظ التشبيه الذي استعمله يسوع المسيح وذلك الذي استشهد به آدم سميث. (نظرية العواطف الأخلاقية) كتاب يتعلق بجيراننا. و(ثروة الأمم) يتعلق بالنصف الآخر من المعادلة: نحن.

وافترض، كما هو واضح، أن الاهتمام بأنفسنا يمثل أعلى مستوى من القداسة. ونحن بحاجة إلى ذلك، منطقيًّا. في (نظرية العواطف الأخلاقية) أصر سميث، مستشهدًا بالفيلسوف اليوناني زينون، على أن كل واحد منا: (موصى أولًا وقبل كل شيء بالاهتمام بنفسه)[٢٢]. و(وهب مبدأ حب الذات)[٢٣]. فحين أكون معدمًا، وجائعًا وعاريًا وكارهًا لنفسي لن أفيد أحدًا من الجيران في الحي.

(*) (١٩٠٦-١٩٧٥): مؤلفة أمريكية، ومختصة بالعلوم السياسية، وأستاذة جامعية، من أصل ألماني. (المترجم).

(**) (١٩٠٦-١٩٦٢): مسؤول نازي أدين بارتكاب جرائم حرب ونفذ فيه حكم الإعدام. (المترجم).

في (ثروة الأمم)، ألح سميث بإصرار على ضرورة أن نكون أحرارًا في الاهتمام بأنفسنا. يظهر كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) كيف تجعلنا المخيلة نهتم بالآخرين. في حين يبين (ثروة الأمم) كيف تجعلنا المخيلة نأكل ونلبس ونهتم بأنفسنا.

لا يمكن إلا للمخيلة تبرير ما جاء في سفر التكوين (١:٢٦): (وقال الرب، لنخلق الإنسان على صورتنا). من المؤكد أن ذلك لا يتعلق بالشكل والمظهر. ربما تمثل المخيلة السمة الوحيدة المميزة للبشر. إذ تكتشف الحيوانات بحواسها كل ما يفعله البشر وأكثر. وربما يخطر ببالها كثير من الأفكار مثلنا، على الأقل من التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساء. متى موعد الغداء؟ يمكن للحيوانات أن تحب. ووفقًا لما نعلمه، يمكن لشعور رومانسي أن يخترق قلب الأميبا - أو أي متعضى من المتعضيات وحيدة الخلية - قبل أن تنقسم. لكن الحيوانات، التي يتضح بكل جلاء عدم حساسيتها تجاه الفضيلة والرذيلة حين يتمسح كلبك الصغير برجليك، لا يمكن أن تتعاطف، فضلًا عن أن تتعاطف أخلاقيًّا. ولا يمكن لها أن تتعاون بما يكفي لبناء حضارة، إلا إذا حسبت أن كومة الرمل التي يجمعها النمل تشابه الأكروبوليس. كتب سميث في (ثروة الأمم): (لم يشاهد أحد قط كلبًا يقوم بعملية تبادل نزيهة وواعية لعظمة مع كلب آخر)[٢٤].

لم يعتقد آدم سميث أن الخير والطيبة متأصلان فينا، ولا صدق بأن الغنى والثراء سمتان أصيلتان في البشر. لكنه آمن بأننا وهبنا

قدرة التخيل لنكون أخيارًا وأثرياء، إن منحنا حرية بذل الجهود الضرورية. وتوفر قراءة الكتابين معًا مخطط تفصيلي – للروح أكثر من المجتمع.

لم يطلق سميث أي دعاوى دينية فيما يتعلق بمشروعه الفلسفي. ذيّلَ الفصل الأول من كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) بهامش قال فيه: (الاستقصاء الراهن لا يتعلق بقضية الصواب إذا جاز التعبير، بل بالحقيقة)[٢٥]. وقصد أن يظهر، إضافة إلى (ابتكارات المخيلة المبدعة والمجردة) ما دعاه بـ (الخطة والنظام المخلوقَين)[٢٦]. لكن التصميم الذي رسمه لم يكن أقل من الهندسة الميكانيكية للروح القدس.